

مقتطفات من كتاب

باريس، عندما تتعري

"باريس بحرٌ، وأنا موجة من موجات هذا البحر"

إيتيل عدنان

حين يهطل المطر في باريس، تفتح أوربا مظلاتها. سريعا، تُرمى صحف الصباح في السلال. القهوة تزداد كثافة مع القشدة، مما يجعلك تشاق إلى فيينا، وثمة رائحة خبز مدهون بالزبدة تنبعث من المعاطف السميكة للرجال المسرعين إلى مكاتبهم. داخل المترو ظلام وفوضى. هناك من بين الركاب شبابت كثيرات، بعضهن لم يقرأن قط "*Le Spleen de Paris*"¹. لاشك أن بودلير أحب لندن. تشع المصابيح الكهربائية داخل الحافلات، فالصباح ما زال يشبه مساء أمس مع الزبائن ذاهم الذين ما زالوا يتساءلون طوال سنوات عما إذا كان عليهم أن يبتسم بعضهم لبعض. ليس هذا اليوم هو اليوم. أولئك الذين يذهبون بالسيارات إلى أعمالهم، يغسلون زجاج نوافذهم بعناية تامة، وأحيانا يمسخونها بأكماسهم مسحاً سريعا. من الصعب جدا إيجاد موقف للسيارة حين يكون الطقس تعسا، وذلك هو الحال في معظم أوقات السنة. بعض المواطنين الشجعان يصطحبون كلابهم في جولة صباحية. يتل كل من الناس والحيوانات، غير أن هناك بعض الواجبات التي لا بد من القيام بها، ولا يمكن تفاديها، فهم يتبعون النظام. جميع أخبار الصباح تدور على أوربا. فالوحدة الأوربية هي دواء كل شيء، والفرنسيون يريدون أن يعرفوا كم يبلغ ارتفاع الجليد في روسيا. لعل الشتاءات، مع سقوط الشيوعية، ستغدو أقل قسوة، وسينهض الاقتصاد الروسي. لذلك تحتشد الغيوم الصغيرة بكل أنواعها في أجهزة التلفاز، ليس تلك القادمة من الأطلنطي فقط، وإنما تلك القادمة من بحر الشمال أيضا. آه نعم! هناك عاصفة هبت فوق هامبورغ. وفي الوقت نفسه لم تحفّ وطأة المطر. ليس بإمكانك رؤية الخارج، وليس بإمكانك فتح نافذتك. إنه ظلام يمتد حتى الظهر، وحينئذ يصبح الوقت متأخرا للحصول على ضوء جيد يسقط من السماء. ترفع أنفك، تتطلع إلى الأعالي، فلا ملاك يلوح هناك ببوقه. تمر في السماء غيوم مليئة بالندر. يتدافع بعضها فوق بعض، وينهمر منها الماء. وهكذا، تستمع إلى نشرة أخبار الساعة الواحدة فتعرف أن جميع السباقات قد ألغيت، مرة أخرى. إن كان جهاز الراديو لديك مشغلا، فسيقال لك إن السبب هو الطقس؛ وإذا كان لديك القناة الأولى أو الثانية، فستشاهد خيولا مقيدة ترتدي بطانيات. وتتساءل عما إذا كانت البطانيات مبللة، وتتمنى أن تتحسن الأوضاع. وعلى أي حال، فإنك لن تراهن على الجياد. أصبح الوقت متأخرا. ولا تعرف على وجه التحديد عن أي شيء تأخر، لكنه تأخر جدا. أرصفة

¹ قصيدة شهيرة لبودلير عنوانها (Le Spleen de Paris) وكلمة spleen مستعارة من الإنجليزية، تعني الكآبة والمزاج العكر والضغينة، كما تعني الطحال (المترجمة).

الطريق لامعة، وزلقة أيضا. فالماء يغطي كل شيء. المطر يعمّ جميع أنحاء أوروبا. ثمة ما يشبه شمساً مشرقة في الجزء الإيطالي من أوروبا، لكن، هل صقلية أوروبية حقاً. هل سُدخل هذه الدول الجنوبية الحارة في اقتصادياتنا الشمالية؟ وهل سيزداد المطر هطلاً هناك، حالما تكوّن أوروبا لنفسها جيشاً موحداً؟ لا أحد في هذه الأيام يملك رداً على أي شيء. ماذا لو حمل الروس شتاءهم إلى الأجزاء الغربية من أوروبا؟ كيف سنستيقظ في لجة ظلام صباحات ستوكهولم بتوقيت باريس نفسه؟ سينبغي حل مشاكل غير معقولة. هناك القطارات، بطبيعة الحال. فهي لا تنزلق على الأرصفة، ولا تخشى العواصف. إنها تغادر وتصل في الوقت المحدد. ومع ذلك فهي اختراع أوروبي. وهي تناسب المناخ الأوروبي. أنظر كيف يجتازون سويسرا بيسر، دون بذل أي مجهود إضافي! وستمد فرنسا تذاكر خطوط القطارات لتشمل إسبانيا. وما إن تكون في إسبانيا حتى تبدأ بالبحث عن وسيلة تبقيك في وضع جاف. بإمكانك أيضاً أن تبقى في باريس؛ فالمطر يغسل النصب بعناية، وينزع الأوراق عن الشجر، ويدوّب نفسه في السين، عندئذ لا تعرف أسائراً كنت أم طافياً، يا لها من حالة ذهنية رائعة! أليس كذلك؟ ولكن الظلام يشتد، إن كان بوسعك أن تتخيل شيئاً كهذا. أنوار صغيرة تشق طريقها إلى عينيك. آه نعم! إنك في Rue des Canettes الضيق، وثمة مطعم يوناني لديه حاوية خاصة بالمظلات المبللة، لذلك فإنك لن تضطر إلى الجلوس على مظلتك وتصاب بالتهاب المفاصل. إنك تلج المطعم لأنك جائع، ولأنه لا يسعك أن تفعل شيئاً آخر في باريس سوى تناول الطعام هنا وهناك في هذه الأمكنة الأجنبية المتخصصة بالمأكولات، وهي أقل إملالاً من الأفلام الأجنبية التي تعرضها دور السينما. فمن ذا الذي يريد أن يشاهد على الشاشة أنفاق قطارات موسكو بعدما غمرت المياه أنفاق باريس؟ غير أن هذا المطعم اليوناني بالذات لم يعد يقدم وجبات يونانية، فاحمل مظلتك إذن، واستعد معطفك المبلل، وعد ثانية إلى الشارع الرطب، تحت المطر المنهمر، وابحث عن مكان يقدم طعاماً صينياً أو فيتنامياً بأسعار معتدلة. ولكن حذار، فإنك بدأت الآن تتخطى حدود أوروبا، وأوروبا لم تقم بعد رسمياً. عليك أن تنتظر حتى نهاية السنة. إنك، على الأقل، في باريس، وأنت تعرف ذلك، والأمر لا يحتاج إلى أوروبا أو إلى أي قارة أخرى. ثم إنك لن تموت عطشاً في هذه المدينة، كما يحدث في صحارى أفريقية؛ ولن يجف جلدك أبداً، ستظل بشرتك ناعمة. مع أنك لن تكون لك على الإطلاق حدود متوردة كحدود الإمارات الإنجليزية، ما لم يبدأ العمل بالسوق المشتركة فعلاً. وفي الوقت الحالي حاول أن تجد لك مكاناً صغيراً يقدم نبذاً جيداً من نوع (بوربدو)، بسعر معتدل، يباع بوصفه نبذاً بيتياً، لأن المطر يجفف جيئك مثلما يجفف حنجرتك، بعد ذلك، انظر إلى باريس، تخيلها، إن لم تكن عيناك قادرتين على إيجادها، وانظر أي مدينة صلبة متماسكة هي، وأي تناغم موسيقي حاد في تكوينها، وأي قصة ملحمية في أحجارها، وأي روح متلاشية في مطرها. (ص 10-7).

..فتحت النوافذ، لم أعرف بالتحديد ماذا أفعل، فتسللت باريس إلى الداخل، وملأت كل الأمكنة، وأثلجت وجهي. فأغلقت النوافذ، وحملت من الشرفة إلى الداخل إناء ملآن بالورد، ورد أحمر تسلمته هدية بمناسبة الأعياد، كنت قد رسمته بكل عناية مستخدمة حبر (Sumi)²، وأنا أتركه في الخارج معظم الوقت ليعيش مدة أطول. لقد احتجت إليه، وأصبحت رفقة أساسية لي بعدما أدركت أن ضيفتي عادت الآن إلى بيتها، وأن الضباب في الخارج ازداد كثافة. ولأنني مدمنة على الاستماع إلى الأخبار، أدت جهاز الراديو، ولكنهم كانوا يقرأون نتائج المباراة الرياضية، وأعلنوا اسم الفتاة الألمانية التي فازت بالبطولة في (Garmish). سمعت أن الثلج لم يكن جيداً، وعند هذا الحد أغلقت الجهاز. شعرت أن باريس لا تحتاج إلي، وعليّ أن أفكر تفكيراً جاداً بمسألة عودتي إلى كاليفورنيا. لكن، جملة أسباب تبقيني هنا، والآن، إذ يمضي العصر بسرعة، فإنني أرتمي معطفي وأتجه نحو مقهى (سان كلود). آه! السماء تمطر رذاذاً. فهناك مطر يذوب، مثلما هناك ثلوج تذوب، قطرات لا تصل إلى الأرض: يبدو أنها تتبخر قبل نهاية مسارها. لذلك كان لدي إحساس بأنني أنزلق داخل ملاءات من ماء، من دون التعرض لتأثيرها الكامل. في المقهى تجلس صديقتي كلود (لا تمت بصلة للمكان) ومعها كتاب شعر. لا يدور بيننا أي حديث مهم سوى أن باريس جميلة. ولكن، كلمة جميلة تلك تتضمن قروناً من حياة وحروب، وأشياء عن العمل والإيمان والموتى. باريس جميلة بكل تأكيد، وهي آخر مدينة عظيمة في العالم حافظت على روحها، وتعمل مثل ماكينة زُيتت جيداً. باريس جميلة. إنه قول يؤلم، فذراعا المرء لا تكفيان أبداً لا احتضان اتساع كهذا. بوسع كلود أن تقول ذلك بكل براءة. ولكن قوله أشد صعوبة علي، وأشد إيلاماً أيضاً. إنه يمزقني إرباً إرباً. فباريس قلب القوة الكولونيالية الباقية على قيد الحياة، وهذا إدراك يرافقني كل ليلة إلى سريري. حين أسير في هذه المدينة أغرق في هوة سحيقة، أفقد ذاتي بالتأمل، أمارس إحساساً بالنشوة، نشوة أعرف أنها هزيمة أيضاً. انظر، انظر ما أبشع قوّادي الحي العربي، كيف يُجردون الجزائريين من إنسانيتهم وهم جاثمين على صدورهم، كيف دمّروا نساءهم، ما أخزى بغيهم، خاصة أولئك الذين يصوتون لطردهن من البلاد. إنني أعتبر هذا الكائن المتوحش المسمى باريس، جميلة، وإنها كذلك فعلاً! تأخر الوقت، تأخر على المكوث في المقهى. أعود إلى الدار سالكة بعض الشوارع الضيقة، أمر من ساحة كنيسة القديس سولبيس (Saint-Sulpice)، وأمر ببطء لأنني أحب الماء فوق الماء، والمطر يهطل على النافورة المتدفقة. إنها ليلة شتاء تصلح للبقاء في الدار. أتذكر الغداء الذي تناولته، حائرة، غير واثقة بأي شيء. وبعد، فإنني لا أشعر بنعاس، الساعة داخل الشقة تشبه تلك الموجودة خارجها، وأنا لا أسدل الستائر. أحب زجاج نوافذني السود البرّاقة، فلا صوت أبداً يدخل من الشارع. أفتح التلفاز لأتابع نشرة أخبار العاشرة، ضياء خاطف! أخبار من الإمبراطورية: رئيس جمهورية الجزائر يستقيل ليتيح

² نوع من الأحبار الصينية، أسود اللون. م.

للجيش مجال تسلم السلطة ضد الأحزاب الإسلامية التي فازت ببسر في انتخاباتهم الأخيرة، لأن ذلك ما ترغب فيه باريس أيضا. كيف يمكن أن تتحمل القوة المهيمنة اختلافات كبيرة كهذه بين الثقافات؟ إنه كما لو تفرض على الأمريكيين الاعتراف بأن شطائر التاكو³ أفضل من خلطة الحبوب (cereals) التي يتناولونها في الصباح. الفرنسيات قادرات على التحمل حين يعرفن أن النساء في الجزائر يتضورن جوعا، لكنهن لا يطقن معرفة أن النساء الجزائريات يؤدين صلاتهن في البيوت، في الوقت الذي تذهب فيه نظيراتهن الفرنسيات لحضور القداس. هل بالإمكان مطالبة أناس ابتدعوا المنطق عمليا، أن يكونوا منطقيين؟ لذلك، فأنا، جالسة مساء بالقرب من التلفاز، أرى مأساة توشك أن تكشف عن نفسها. الوقت متأخر جدا للقيام باتصال هاتفي مع أي شخص، وماذا بوسع أي شخص أن يحمل من أخبار لم تكن قد قيلت فعلا؟ يبدو لي أنني أرتعش، لذلك أتأكد من أن فراشي جاهز، وأن البطانيات لم تنزلق عنه، وأن بقية ماء مازالت موجودة في قنينة مياه (فولفيك)، أخلع حذائي، وجوربي، وثيابي، وتحت أغطيتي أستعد للنوم، لو استطعت. (13-15).

3

شيء ما خرق السماء، ضوء ما. تجمعت كتل من غمام آتٍ من الشرق. شيء ريفي وأسطوري أخرج هذا الصباح من ليلة أمس. حتى الحمام رفرت عاليا مفردة أجنحتها. إنها رمادية اللون، أو تشوبها نقط بيض، أو هي بلون بياض الثلج. عندما تكون مستقرة، تكون تصميمها شبيها بالمخزّات. هل تعتقد بأن الربيع واقف خلف الباب؟ لا أعرف. ثمة شيء في الهواء يبعث على الخوف، أشياء غير مرئية تتسارع. إنني لا أفهم السبب الذي يجعل أسفلت شارع Vaugirard المحاذي لمجلس الشيوخ، يسرع من حركة دورتي الدموية، ويوجد حاجات لا يمكن تسميتها، كما يربك إرادتي. لونه فضي، يمنح البصر إحساسا بالنعومة، ولو أطلت التأمل فيه كثيرا فقد أصاب بحالة إغماء. إنه ينعطف نحو شارع مديتشي حيث تضطجع الحديقة، وهي لم تعد غابة كما كانت، بل حديقة، ومع ذلك، فهي تكسب المعركة لاستعادة سحرها. درجات الحرارة في ارتفاع طفيف، مع وجود جيوب هوائية باردة تهب أحيانا. البرد الشديد يقرص الآذان. أما التخطي نحو الشارع فإنه يشابه غسل الوجه بماء بارد. إنك، في باريس، لا تمارس البتة الإحساس بالتوغل بعيدا. فهي أليفة دائما. ووحدة تصاميمها المعمارية تجعلها تنقل، ذلك لأنك تنتقل باستمرار بين ما هو فخم وحميمي. أنت لن تسقط في القفر أبدا. إنني أبحث عن الصداقة بحثا مفرطا، كيف يمكنني من غيرها مواجهة مدينة هي مسرح للعلاقات الحميمة، من غير أن ألقى إنسانا عزيزا إلى نفسي؟ باريس مدينة للعشاق لأن محيطها يهيئ الأجواء، ويجعل من غياب العشق حالة تدفع إلى الجنون. وبذلك، وعلى نحو مفارق، فإن الشعور بالوحدة يكمن في جوهر باريس، لأنه ما من عشق

³ التاكو خبز أو فطيرة محشوة باللحمة المفرومة المتبلّة والطماطم والخس. (م).

يستطيع أن يفني بالتوقعات التي تخلفها هذه المدينة. لذلك أعشقُ السماء في أغلب الأحيان، أو المطر أو القيمة الخاصة للضوء الذي اختفى للتو. غابت الكائنات السماوية الوديدة كما غاب الألق. السماء فعالة الآن، وأفكاري تحتاج إلى أن أعيد توجيهها. حين لا تعرف ماذا تفعل، فإنك تدير جهاز التلفاز، ثم تغلقه. (ص 26-27) ...عليّ أن أسلك الطريق الذي يمر بشارع Soufflot، خلف الباثيون، وأنا أرتعب من ذلك الضريح، خاصة بعد أن قام الرئيس ميتران، يوم تعيينه رئيساً، بتقديم أكثر الأدوار خداعاً. تذكّر، لقد ذهب إلى ذلك القبر ليحيي رجال فرنسا العظام. وقد انطلى الأمر على بعضهم. يا له من يوم رهيب! فعلى نحو مفاجئ ظهر كل السخام المتراكم على الأنصاب التذكارية. وملاّت النفايات كل مكان. بإمكان باريس أن تصبح مطبخاً كبيراً جداً، مليئاً بالنفايات، تنبعث منها رائحة الشحوم، وتغلي. جاءني المعماري المسؤول عن العمارة، قاطعاً رحلتي التأملية في السماء، كان يريد أن نتباحث حول مدخنة الجيران المائلة باتجاه الجدار الجنوبي. إنه منزعج جداً من الأحوال في فرنسا. وقال، لا، لا يمكن أن تستمر الأمور على ما هي عليه الآن. كثرة المهاجرين تجعل الفرنسيين أغراباً في أرضهم! أعتقد أن جنون الاضطهاد الذي استحوذ عليه، يزيد من عدد تلامذته. إنني أدرك شعوره. فالهجرة، بنصفها الحقيقي ونصفها المتخيل، مشكلة هنا. لقد جاء التغيير بصورة مفاجئة جداً. وصديقي المعماري يتخبط. فهو يتكلم عن الأفسنتين⁴، ويقول: "هل تعلمين، كان شراب الأفسنتين أساسياً في القرن التاسع عشر، وهو الشراب المثالي لدمني الكحول، ويُعتقد أن الوفيات كانت تأتي عقب شربه" ويواصل كلامه: "حسنًا، هل تعرفين، لقد ورد في الكتاب الثالث من رؤيا القيامة أن الملاك ينادي ببوقه عامل التدمير: الأفسنتين! لقد ورد ذكره خمس مرات! حسنًا، الأفسنتين، باللغة الأوكرانية هو كلمة تشيرنوبل! وبوسعك الآن أن تستخلصي النتيجة الحتمية لهذه الرؤيا. إلى أين يمكنك الذهاب من هناك؟" بل نذهب، على الرغم من ذلك، إلى قلب فرنسا حيث نجد المدن الصغيرة الرائعة المشيدة بالحجر. هناك، يكتب الحجر التواريخ الصغيرة للناس، إنها سجلات حياة، وعناصر جمال. مبانٍ جميلة لحياة عادية. كما هو شارع بارك رويال Rue du Parc Royal في باريس: فثمة بناء وردي، كالوردة، كالورود، حلم تجمّد في حجر. من أجل أن أراه استقل الحافلة رقم 96، أعبّر من ضفة السين اليسرى إلى اليمنى، آه، إنها المرأة! هل أرى ماءً؟ هل تستعير السماء لوناً من النهر، هل يصبح النهر سماءً؟ هل أنت دائماً في الرابعة عشر من العمر لمجرد أنك تعيش هنا، لا لأنك سعيد، ولا لأن من هم في الرابعة عشر سعداء. لكنك تُستثار من الشمس الحمراء المشعة التي تترك خلفها ذيول نار باردة. تغمرك السعادة لمشاهدة روما في باريس: جدران من حجر ذهبي، تلك التي تتبع آثار الحدود الطويلة للسين. حلم إيطاليا يسافر دائماً إلى هذا الشمال البعيد، والجسور بانحناءاتها اللطيفة تخطو فوق الماء، إنها رموز الروابط التي ستكون أوروبا. جسور فوق السيول الجارفة لإسبانيا، ثم تلك التي في فيرونا، والتي مجرد ذكرها ينير قلبي، وتلك التي في

⁴ عشبة معمرة لها استخدامات طبية، كما يصنع منها شراب يسمى باسمها. (م).

أمستردام. بوسعي أن أعدد ألف جسر! بعضها، محبب إلى نفسي، أو معظمها، موجود هنا، وإنني سأخرج للتو، وأعبر في مكان ما من ضفة Quai des Grands Augustins، فأجتاز النهر ببطء، وببطء أتطلع نحو الغرب حيث تكون الشمس قد غابت، لو كان بالإمكان رؤيتها. (ص 28-30).

4

باريس، بطبيعة الحال، مفتوحة باتجاه لأرض المدورة. إنها تتلقف أخبار الكوكب، ولكن ما يظهر من أخبار على شاشة التلفزيون، وما يطبع في الصحف، غير جدير بالثقة. التلاعب بالمعلومات هو أكمل علم في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين. الأمر لا يتعلق بترديد الأكاذيب، بل قد يكون قول الحقيقة أحياناً أدكى صيغة لإيصال المعلومات المغلوطة فيها. ولكن، ثمة طرائق للالتفاف عليها. ثمة مساحات واسعة من الأخبار لا تمس أبداً. والأخبار الأخرى تُنتقى بسرية، تقطع إلى أجزاء، يُغفل عن بعضها، فعدم الاكتمال رذيلة حذقة. لقد تداخلت المعلومات بالإعلام حتى أن المتخصصين بها يواجهون مشاكل حادة في مسألة الحقائق. وتظل العجلة تدور. من خلال هذا الضباب، ينظر القادمون من العالم الثالث بشكل أفضل؛ فهي مسألة نجاة. أما مواطنو الدول المهيمنة، فإنهم يخذعون أنفسهم حين يظنون بأنهم لا يحتاجون إلى أن يعرفوا: إنها بداية البداية لسقوطهم... باريس الجميلة واسعة جداً، ومليئة جداً بالناس، حتى أن أفكاري تتشابك مع أسلاكها الكهربائية من دون الوصول إلى نهاية مسارها. فمبانيها الطويلة المصطفة بلا أي فراغ فيما بينها باستثناء الشوارع، تقف حاجزا منيعاً أمام مشاعرنا وأحلامنا. لا يسعك التحليق في هذه المدينة، وعليك أن تتفاوض مع كل حركة تقدم عليها. من أجل ذلك تبقى أفكاري قريبة من الأرض، تلتقط ألوان التراب، وتهيم بارتفاعات واطئة، أفقية دائماً. وهو أمر لا يبعث على اليأس دائماً كما يبدو. فبالحفاظ على وجه خفيض تستطيع أفكاري أن تسافر بعيداً، بإمكانها أن تصل إلى بولندا، أو، بالاستعانة بشيء من الخيال، تصل إلى موسكو. صديقتي بولين تسكن هناك، وهو شيء مفيد. روسيا! بلد جديد جداً، إننا نشهد ولادة هذا الطفل الأوروبي الجديد، وبوجود خواطري في موسكو، يمكنها أن تزور خواطر بولين. فهي تقرأ في المكتبات رسائل بعثها بعض جنود نابليون في عام 1912م. سنة البرد القارص. إنها تقرأ، في أبرد شتاء مر على قرننا (العشرين)، عن الثلج، والموت تجمداً، إمبراطوريات تُصنع وتهدم من قبل أمر كان دائماً هناك، أمر لم يمنحه أحد جيشاً: إنه شتاء دول روسيا كافة، وقائد قوّاتها. ارتعبت أفكاري المسكينة، وتراجعت راکضة. سأخزنها في مكان دافئ. آه! طرقت على بابي. عليّ أن أفتح. إنه السيد باخوس، تاجر النبيذ الذي أتعامل معه، والذي يوصل إليّ قناني مياه (فولفك). قلت له إنني سأستبدل بها مياه (فيتيل) ولكنه يفضل عليها (فولفك)، ولن يحمل إليّ مياه (فيتيل). ليفعل ما يرضيه، إنه في الأقل يتركني أختار النبيذ. الوقت متأخر، والسلام معتمة. القناني داخل البيت. أشعر بارتياح. بوسعي أن أخرج للسير قليلاً وأرى إن كانوا قد

غيّروا واجهات عرض الكتب. يا له من ركن بشع! لقد انتهيت من قراءة جميع كتبي المفضلة. باريس هي أفضل مكان للكتب، لا لأنها تقرأها كلها، وإنما لأن هناك وفرة منها. كتاب واحد لكل مقيم. أظل أعود إلى شاعري المفضل، هولدرلين، كما ذكرت. تصبح باريس هولدرلين الذي لاحق كل غيمة. كان سيضيع في لغز هذه المدينة التي لا يستطيع الإنسان أن يرى فيها غيمة واحدة تامة. كان سيحبها لسعة قلبه. لكنني أذكر أنه بكى ذات يوم، ثم كتب هذه الأبيات:

" أنت، يامدن الفرات!

وأنت، ياشوارع تدمر!

أنت يا غابات أعمدة على وجه الصحراء،

ما الذي حلّ بك!"

لا يستطيع الغرب تحمّل وميض الشرق الفوسفوري... أستطيع أن أرى هولدرلين في باريس، بمغفرته، وبفهمه العميق الذي لا حدود له. لقد اختفت النار المقدسة. وهكذا ستفعل باريس. إنهم، هنا، يفهمون الرماد. وقلوبنا التي تحولت إلى رماد، تجد إناءها في هذه المدينة الدائرية التي قلبها جسر، أليس كذلك؟ أستطيع أن أثق دائماً بمدينة ذات جسور، بغض النظر عن الألم. ففي المعلق شيء شبيه بالأمل. إنه اقتحام لحيز فارغ؛ تيار حياة إزاء الموت. وانعكاسات! هل بإمكاننا أن نعيش بلا أقواس وانعكاسات؟ لا! إنه كالعيش بلا ماء، وهو أمر مستحيل. حين تصل الأمور إلى حد لا يُحتمل، ستظل هناك شواطئ السين. إنها صاحبة، بحكم ثقل المدينة، أعرف ذلك جيداً. مع ذلك، فهي لا تزال هناك، من أجل العقل لا من أجل الجسم، و أحياناً، يقع كثيرة من الضوء. (ص78-81).

-

ترجمة: مي مظفر

باريس عندما تتعرّى، دار الساقى، بيروت 2007م.

إيتيل عدنان

شاعرة وروائية ورسامة، إيتيل عدنان مزيج من أعراق ومعارف، تاريخ ثقافي طويل وحافل بالعطاء يمتد على مدى حقبة بين بيروت وباريس وكاليفورنيا. هي نبع بلاد الشام ونتاج ثقافات العالم، تمازجت بها لتخرج بنسيج فريد ونادر في أدبنا العربي. أقول أدبنا العربي على الرغم من أن أدب إيتيل

مكتوب كله بالإنكليزية والفرنسية، لكن جوهر هذه الكتابات محض إنساني مشبع بالهم العربي، وذلك هو سر غناه. أديها ينضح بقضايا الشعوب المقهورة. فهاجسها الإنساني، وانخراطها في العمل الأدبي إبداعا وتدريسا، ومواكبتها للزلازل التي ضربت أجزاء الوطن العربي ودمرته في الصميم، دفعها إلى اتخاذ مواقف حادة وحديّة. ومما يزيد الأمر تعقيدا أنها ترى بأم عينها أن الغرب الذي تربت في كنف ثقافته، وتبنت لغة التعبير خاصته، كان دائما عامل الخراب والتدمير الحضري والإنساني لوطنها. إن فكر إيتيل المشبع بالفلسفة جعلها مفكرة من الطراز الأول، ولأنها معنية بالشأن الإنساني، فقد استطاعت بموهبتها الفذة، أن تحوّل أفكارها إلى أدب شفاف وأخاذ يتداخل فيه السياسي والإنساني، العام والخاص بنسيج محكم ومتوازن.

بحكم نشأتها وتربيتها في بيروت، تفجّرت موهبة إيتيل الشعرية في وقت مبكر، فكانت اللغة الفرنسية هي لغة التعبير التي تعرف. وحين أرادت دراسة الفلسفة كان من الطبيعي أن تتجه إلى باريس، لكنها سرعان ما قطعت حبل هذه الصلة متجهة في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين إلى كاليفورنيا. وهناك كان عليها التلاؤم مع ثقافة جديدة ولغة تعبير أخرى. في باريس أولا وفي أمريكا ثانيا، تفتح وعي إيتيل عدنان على المواجهة الشرسة ما بين الشرق والغرب، وأحست أنه لا مكان لها سوى بيروت، فعادت إلى هناك لتخرج ثانية مع اندلاع الحرب اللبنانية.

يتداخل الشعر والنثر في كتابات إيتيل، وللشعر سطوته على نصوصها إذ يتسلل إلى مفردات النص وروحه بتلقائية وعفوية. فهي نصوص معدنها شعر ذائب في قطع نثرية تستعيد الأدبية من خلالها ذكريات طفولتها، وتستمد المشاهد من تجاربها بتداخل زمني لا يتقيد بحقبة أو مرحلة. لقد أوصلتها تجربتها الغنية إلى قدرة تعبيرية تجاوزت من خلالها الخوض في التفاصيل والاكتفاء بالعبارة الوجيزة الشاملة. نثر إيتيل، كما شعرها أيضا، مكوّن من جمل شبيهة بقطرات سائل سحري، ما إن تلج إلى الداخل ملامسة الأعماق حتى تشيع في العقل اضطرابا غامضا وحيوية تستثير الفكر والروح معا.

أصدرت إيتيل عشرة دواوين شعرية، بعضها عبارة عن قصائد طويلة، والبعض الآخر يحوي مجموعة قصائد مكثفة صغيرة، وفي كلا الحالين تقدم إيتيل ديوانا يتمحور حول فكرة رئيسية، تدور قصائده حولها في مقاطع. كما أصدرت رواية صغيرة (الست ماري روز)، وكتبا أخرى ذات طابع تأملي، ولديها رسائل منشورة ومترجمة ترقى إلى أعلى مراتب النثر. وعلى الرغم من أن الكثير من أعمالها الأدبية مترجمة إلى العربية، وبعضها جاء بترجمات راقية، فأديها لا زال غير رائج الرواج الذي يستحقه في حياتنا الثقافية.

ظلت اللغة العربية لدى إيتيل عدنان، بوصفها لغة تعبير أدبي، فردوسا بعيد المنال، وحين تُسأل عما إذا كانت تشعر بأنها منفية لعدم قدرتها على التعبير بالعربية تقول: "نعم. ولكنه نفي يمتد إلى حقب من الزمن حتى أصبح جزءا من طبيعتي، ولا يسعني أن أقول إنني أتعذب من جرائه. فالشاعر، أولا وقبل

كل شيء، طبيعة إنسانية في أصفى حالاتها. والشاعر إنسان مثلما القطة قطة، وشجرة الكرز شجرة كرز". وهي ترى أنه من غير المجدي البكاء على الظروف السياسية والاجتماعية التي وضعتها أمام هذا الاختيار. ولا مجال للنظر إلى الوراء. إنها ابنة المكان والحاضر، تكتب شعرها أينما تكون، وباللغة التي تتقنها، وعليها أن تتطلع باستمرار إلى الأمام، وهذا ما فعلته وتفعله، وهي تعيش موزعة على أمكنة ثلاثة: كاليفورنيا وباريس وبيروت.

صدر كتابها "باريس عندما تتعري" باللغة الإنكليزية عام 1993، عندما كانت أوروبا تتهيأ للدخول في مشروع الوحدة الأوروبية. ولعل إيتيل عدنان، وهي تستبق الأحداث، رأت بحسبها احتمال أن تذوب باريس في أوروبا، فأرادت أن تمسك بها. وكتابها هذا تأملات في باريس المدينة، وباريس التي تعشق وتكره في آن واحد. فعشقها شبيه إلى حد كبير بعشق بودلير لمدينته التي عبر عنه في ديوانه "أزهار الشر". إنه صراع مع عشق ظالم ومدمر، ولكنه عشق يمسك بالروح فلا فكاك منه. وإيتيل إذ تعري باريس في هذا الكتاب، فإنها تتحدث بلوعة وتلذذ عن عشقها المعذب قائلة: "لو كانت باريس سماء قاتلا لشربت منه جرعة كبيرة بكل سرور" (باريس عندما تتعري ص 38).

مي مظفر

عمّان: كانون الثاني 2008م